بسم الله الرحمن الرحيم

المشورة - 10 -

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا وقرّة عيوننا محمّد، وآله وصحبه أجمعين:

لازلنا نترقّى -إنْ شاء الله تعالى بمعالم وبركات المرحلة الثانية من حياة سيّد السادات عليه أتمّ السلام وأفضل الصلوات وعلى آله وصحبه ذوي الفضائل والمكرمات، وهذه المرحلة تميّزت بالجهد المبذول من سيّدنا الرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه العدول- في المجاهدة، وبالتحرّي.

"التحرّي" قلتُ حراء من ضمن أصول اشتقاقاته هو التحرّي، ولكن ليس هذا الأصل فقط، وإنّما هناك أصول أخرى لهذه اللفظة، لكن منهج سعد الله عدم التوسّع، وإنّما ذكر ما يتعلّق بما أريد إيصاله إلى أحبابي، وتذكير نفسي به، فنلاحظ أنّ هذا التحرّي بدأ منذ أنْ حُبِّبَ إليه الخلوة صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم واستمرّ في هذه المرحلة، كيف استمر؟ استمر لأنّه سيكون مشرعًا لهذه الأمّة، لا ينطلق بدوافع الفطرة السليمة فقط، وإنّما ينطلق بهدايات وبركات ما أنزل عليه، من بداية ما أنزل عليه صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه.

فمثلًا نرى التحرّي عنده أنّه يريد أنْ يتثبَّت، مَنْ هذا الذي جاءه؟ فهذه صورة من صور التحرّي والتثبّت، فهذا التحرّي يدعوه إلى أنْ يذهب أولًا إلى البيت؛

ليأخذ قسطًا من الرّاحة، ثمّ يفكّر في الأمر، إلى مَنْ يذهب؟ وهيّأ الله تعالى أمّنا السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها وعنكم فأخذته إلى ابن عمّها سيّدنا ورقة بن نوفل رضي الله سبحانه عنه، وهذا من باب التثبّت، ما قاله سيّدنا ورقة رضي الله تعالى عنه، وما تعلّمه من الكتب السماوية السابقة، وما تعلّمه هو من تحرّيه لبعض الحقائق والأخبار التي كان يسمعها من أهل الكتاب، ومن أهل الحكمة، وربما أيضًا رجل بهذا المستوى من البحث عن الحقيقة، لا أستبعد أنْ سيّدنا ورقة رضي الله تعالى عنه كان من أولياء الأمم السابقة، بل من كبار الأولياء، وبالتالي ربّما منازله الروحية جعله الله تبارك اسمه ببركتها يستكشف بعض ما هو موجود في صفحات الغيب التي تدعمها النصوص التي كان تعلّمها، فهذه صورة من صور التحرّي.

مثلًا ورد أنّ أمّنا خديجة رضي الله تعالى عنها أرادت أنْ تتثبّت فعلًا، فكشفتْ عن حجابها، هل تراه؟ سألتْ النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام عندما قالت له:-

(قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا ابْنَ عَمِّي، هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا جَاءَكَ الَّذِي يَأْتِيكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِهِ؟ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ يَا خَدِيجَةُ. قَالَتْ خَدِيجَةُ: فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَنَا عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَدِيجَةُ هَذَا صَاحِبِي الَّذِي يَأْتِينِي قَدْ جَاءَ، فَقُلْتُ لَهُ: قُمْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِيَ الْأَيْمَنِ، فَقَامَ، فَجَلَسَ عَلَى فَخِذِيَ الْأَيْمَنِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: تُحَوَّلْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِيَ الْأَيْسَرِ، فَجَلَسَ، فَقُلْتُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: فَتَحَوَّلَ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي، فَجَلَسَ، فَقَالَتْ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: فَتَحَسَّرْتُ

وَطَرَحْتُ خِمَارِي، وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ تَرَاهُ؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا وَاللَّهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا شَيْطَانٌ) الإمام الطبراني رحمة الله جلّ جلاله.

فطمأنَتْهُ.

التحرّي من باب آخر، وهو باب أهل الفطر السليمة، أهل الأذواق، الذين على الأقلّ سمعوا شيئًا ممّا ورد عن الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، عن الأولياء، ولا يخفى عليكم أنّنا نتحدّث عن مدينة فيها بيت الله جلّ وعلا، فيها قصص عن سيّدنا إبراهيم، وقصص عن سيّدنا إسماعيل، قصّة أمّنا هاجر عليهم السلام جميعًا، وعلينا رحمة الله وبركاته، فكلّ هذه المعلومات -وإنْ كان أصابها ما أصابها- جعلت هنالك تطلّعات لما سيحصل في مستقبل هذه المدينة، مكة المكرمة، والمدينة المنورة بعد ذلك - زادهما الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا- فهؤلاء يعلمون أنّ القيم الفطرية، والقيم السماويّة تقي الإنسان من الأضرار، ومن المضرّين، فلذلك طمأنَت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم بذكر شمائله الشريفة:-

(... كَّلا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ...) الإمام البخاري رحمه الباري سبحانه.

إلى آخر ما ورد عنها رضي الله تعالى عنها، وهذا كلّه من التثبّت.

مَعْلَم التثبّت في هذه المرحلة واضح جدًّا، ستقولون: يا سعد الله ماذا نستفيد من هذا الكلام؟ نستفيد من هذا الكلام أحبّتي أنْ نتثبّت، أنْ نرسي قواعد منهجنا على التثبّت، ليس بمجرّد أنْ يأتي أحد ويقول: إنّ سعد الله قال كذا وكذا فامشوا هكذا، لا، لابُدَّ أنْ تتثبّت، فهناك أناس مغرضون، وهناك أناس جهلة، وهنالك حاقدون

وحاسدون، فلابُدّ من التثبّت، فالتثبّتُ أصلٌ في الدّين، أكّدَته النصوص بعد ذلك نصوص (افعل ولا تفعل) قال جلّ جلاله:-

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [سورة الحجرات: 6]

{... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...} [سورة البقرة: 111]

وهكذا نصوص كثيرة في الكتاب العزيز، والسنّة الكريمة الشريفة العزيزة، أكّدت هذا الأصل الفطري، والموروث من الثقافات التي كانت موجودة في مكة المكرمة في ذلك الزمان، فهذه المرحلة مرحلة تأسيسية من خلال التشريع، وليس من خلال النوازع الفطرية السليمة، أو فعل يد القدرة الإلهية اللتين ذكرناهما في المرحلة الأولى.

في المرحلة الأولى: الله سبحانه يكلؤه ويحفظه ويعصمه صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وقد تحدّثنا عنها باستفاضة بالشواهد، وهو يجسّد رجولته، ويجسّد سلامة فطرته، ويجسّد بشريته بالانصياع لهذه الدوافع الفطرية في الإنسان.

فالإنسان على الفطرة، الإنسان كائن فيه من الخير ما فيه فطرةً، بحيث أصبحت هذه الفطرة هي أصل الديانة، هذا الإيمان هو أصل الدين، وهو شيء مغروس في عمق الروح الإنسانية الزكيّة الطاهرة، قبل أنْ يبلغ الإنسان مبلغ الرجال؛ فتنبتَ عنده الطاقة السلبية التي يعبّر عنها بالنفس الأمّارة بالسوء، كما تنبت

أسـنانه بعد فترة من ولادته، وكما تظهر على جسـده بعض معالم تدلّ على أنّه ابن كذا سنة، وتظهر عنده توجّهات كذا وكذا ...إلخ.

ففي المرحلة الثانية: نجد هنا أنّه لم يعُد مسـتسـلمًا فقط ليد القدرة الإلهية تكلؤه، وإنّما بدأ يدخل في عتبة رياض -وأقول في (عتبة) باعتبار الخطوة الأولى- في عتبة رياض القيام بالتكاليف، والاسـتعداد لاسـتقبال (افعل ولا تفعل) مع التأكيد على حسـن الصـلة بالله عزّ وجلّ، والتأكيد على الأخذ بالوسـائل لأنّنا في دار الأسباب، لأنّنا في دار الوسائل، فـاقرأ، والقلم، وتكرار القراءة، --- إلخ.

إذنْ هذه المرحلة الحقيقة هي مرحلة تأسـيس، فيها من فعل العبد ما فيها، فليُنتبه إلى فعل العبد، لنرى كيف أنّه تلقّى الوحي، واسـتوعب قلبه الشـريف الآيات الأولى من القران الكريم، وبدأ يتفاعل معها، فبدأ يتحرّى ويتثبّت، وبدأت معالم التحرّي والتثبّت تظهر، هذه كلّها سـنتعلّمها إنْ شـاء الله تعالى، يفترض أنْ نتعلّمها.

في سـورة العلق، وقبلها وضـعنا خمس نقاط، وقلنا: إنّنا سـنقرأ السـور الأولى نزولًا على أنْ نسـتنبط الجزيئات التي تدخل تحت هذه الكلّيات الخمس، فكيف نرتب هذا؟

الحقيقة: نحن في المرحلة الأولى وإنْ أخذنا أواخر سـورة العلق، وهي ربّما لا تتعلّق بالمرحلة الأولى، ولكن أخذناها فقط من باب التدريب على كيفية إدخال الجزئيات تحت هذه الكلّيات، وإلّا فهي بدايتها تتعلّق بالمرحلة الثانية، ونهايتها تدخل بالمرحلة الثالثة الأخيرة التي اخترتُها.

فكيف نرتّب، وإلى متى نحن ندرس سيرة الحبيب صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه أهل الطيب، في ظلال هذه المرحلة الثانية؟ الحقيقة ندرسها إلى صدر سورة المزمّل، وبداية نزول سورة المدثّر، إذنْ سيكون هذا ترتيبًا منهجيًّا، وليس من باب الترتيب الإخباري، فهذا الترتيب لا يستند على الأخبار الواردة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم من حيث النزول؛ لأنّ هناك روايات كثيرة وشائكة، الله أعلم ما سببها؟ هل سببها أنّ هذا الأمر ليس شيئًا أساسيًّا في الدِّين؟ فالشيء الأساسي في الدِّيْن هو المصحف المعجزة التي بين يديك، التي تقدّمها للعالم وتقول بملء فيك: محمّد رسول الله صلى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، فإنْ قيل لك: وما الدليل؟ تقول: هذا المصحف الشريف، فهذا لابُدَّ له من روايات ثابتة، وأبحاث مستقرّة. وهذا الذي حصل -والحمد لله رب العالمين- منذ أنْ بدأ الصحب الكرام رضي الله تعالى عنهم يُظهرون ويعلنون عن منهج النبيّ صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه في جمع القرآن الكريم؛ لأنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه هداة الأنام، لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلّا وقد كان القرآن الكريم مكتوبًا مجموعًا، ولكن على شكل أجزاء، على شكل قطع، فلم يكن مجموعًا في مصحف واحد، لكنّه مكتوب ومحفوظ في صدور الرجال، على الأحجار، أو على الجلود، على وسائل الكتابة البدائية التي كانت متوفرة في عصره صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ثمّ بعد ذلك جُمع في مصحف واحد، فهذا ضروري.

لكن ما هي الضـــرورة الملحّة في إثبات نبوّة الحبيب، ورســـالة الحبيب عليه الصـلاة والتسليم وآله وصـحبه أجمعين؟ وما الضـرورة لهذا الإثبات في معرفة الآيات التي نزلت أولًا، والآيات التي نزلت آخرًا بالتحديد؟ وكيف نرتبها ترتيبًا بحسب النزول؟

الحقيقة: لأنّ الترتيب بحسب النزول لا يشكّل هذه الأهمية التي يشكّلها الترتيب التوقيفي بوحي من الله تبـارك وتعـالى، لـذلـك لم يعتنوا كثيرًا بـالروايـات التي جاءت، فجاءت روايات كثيرة، مع أنّ الإجماع موجود على أنّ أوّل ما نزل هو خمس آيات من سـورة العلق (صـدرها)، لكن بعد ذلك كلّها (الروايات) تختلف، هل المزمّل جاءت بعد العلق؟ هل هي المدثّر؟ هل هي نون والقلم؟ هل هي سورة الفاتحة؟ --- إلخ، ففيها روايات كثيرة.

فنحن الآن عندما نبني منهجًا، ونريد أنْ نستفيد من حياة الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، عندي أرتّب هكذا، أقول:-

1. هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق.
2. ثمّ المزمل.
3. ثم بعد ذلك المدثّر.

وهكذا تتابع نزول القرآن الكريم، ولكن عندي هذه السـور الثلاث تشـكّل أسُـسَ المنهج لمَنْ يريد أنْ يكون داعيًا، وهذا موضـــوع اجتهادي، فيمكن لأيّ أحد من أحبابي أنْ يكون له رأي آخر، وِجْهَة أخرى، لا بأس، بل على العكس، أنا أشجّع ذلك؛ لأنّ أسميتها مشورة، فأيّ أحد عنده رأي، عنده مناقشـة، وسـنعقد جلسـات

فيها الحوار والمناقشـــة، والمشـــاورة، حتّى نكون صـــادقين في التفاعل مع نصوص الشرع الشريف:-

{... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ...} [سورة آل عمران عليهم السلام: 159]

ليس فقط نتكلّم، أخشـــى أنّ ربّ العالمين -لا قدّر الله عزّ وجلّ- يدخلنا تحت قوله:-

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف: 2]

نعوذ بالله تبارك وتعالى.

إذن الآن أقول: صدر سورة العلق خمس آيات، بعد ذلك الشطر الأوّل من سورة المزمّل، أو سورة المزمّل بكمالها وتمامها، ثمّ بعد ذلك سورة المدثّر.

طيّب هذا إلى أيّ مرحلة؟ هل هذه من المرحلة الثانية؟ أم من المرحلة الثالثة؟ من أين سنبدأ في المرحلة الثالثة؟

الحقيقة الذي أراه نافعًا لنا -والله تعالى أعلم- أنّ هذه الآيات الخمس هي من المرحلة الثانية قطعًا، وســـورة المزمّل تدخل في المرحلة الثانية أيضًـــا، على اعتبار ماذا؟ ما العلّة التي بني هذا الترتيب عليها؟ العلّة أنّ هنالك إعدادًا أوّلًا، ثمّ بعد ذلك (بعد الإعداد) انطلاقًا للتغيير ثانيًا.

"إعداد" لأنّك لا تستطيع أنْ تأتي بشيخ محمود مثلًا، وهو خريج ثانوية عامَّة أو مدرســـة دينية، وتقول له: تعال ودرّس في الكلية! لأنّه غير مُعدٍّ لذلك؛ وفاقد الشيء لا يعطيه، على الأقل حسب القوانين والأسس التي تسير عليها الجامعات الآن، أنا لا أتحدث عن زمان سيّدنا الشافعي، أو زمان الإمام أبي حنيفة رضي

الله تعالى عنهما، ولا حتى عن زمان السلف الصالح رضي الله سبحانه عنهم، فيستطع أحدنا أنْ يقول بملء فيه: إنّ سيّدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما كان بيتُه جامعة بكلّ معنى هذه الكلمة، لماذا؟ لأنّه في يوم يدرّس النّحو، وفي يوم آخر يدرّس الصّرف، ويوم يدرّس التفسير، ويوم يدرّس القراءات، وهو وحده، فهو وحده جامعة، فكلّ التخصّصات المتعلّقة بالشريعة وبالعلوم الرائجة في ذلك الزّمان يدرّسها، وفي بيته.

فأنا لا أتحدّث عن هكذا نماذج، وعلى هكذا عبقريّات، وإنّما أتحدّث عن هذا الزمان، فهناك أسس معيّنة، فيقال لهذا الذي سميّناه "محمود": أنت لا تستطيع أنْ تدرّس؛ لأنّك لا تحمل شهادة، وهذا هو الحقّ، فأنا لا أستطيع أنْ آتي بمدرّس أو معلّم ابتدائية، وأسلّمه زمام التدريس في الجامعة، فهذا مستحيل، وكذلك في الأمور المعنوية والمادية، فمثلًا إذا وُلِدَ عندنا طفل عمره أسبوع، وأقول له: قد ملأتَ علينا البيت، وحيّاك الله تعالى وبيّاك، اليوم لأعملنّ لك "مشاوي" وأذبح له ذبيحة، وأحضر له المشاوي بأنواعها! فهل هذا ممكن؟ هذا غير ممكن، فهذا ليس طعامه.

فإذا أنْتَ تؤسّس يا سعد الله، لابُدَّ أوّلًا من الإعداد، إذا أنت تريد أنْ تؤسّس للتجديد وللتغيير؛ فلابُدَّ من الإعداد، لابدُّ أنْ تعدّ أئمّة الهدى في هذا الميدان في هذا المجال، لابُدَّ أنْ تعدّ ذوي الحكمة، وذوي الذوق، ذوي التفاني والحبّ، ومَنْ يحبّون تعاليم دينهم، مَنْ يحبّون تعاليم ما آمنوا به، حبًّا يقضّ مضاجعهم، شوقًا للالتزام، يقضّ مضاجعهم شوقًا لنقل الخير إلى الغير؛ طيّب، فهذا الشخص إذا لم أعدّه فلنْ أستطيع أنْ أدخله في هذا الميدان الشائك:-

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمّل: 5]

إذن الآيات الخمس الأولى في المرحلة الثانية، وسورة المزمّل من المرحلة الثانية، ولا يعني ذلك أنّه لنْ يستمر في المراحل القادمة، أو في الثالثة على الأقل، لا، ولكن للتأكيد ولتسليط الضوء عليه.

مرحلة نقل الخير إلى الغير بدأت معالمها تظهر في المرحلة الثانية، أكثرها بتوفيق من الله جلّ في علاه لأناس يستحقونها، وبعضها ببيان تامّ، أو مجاهدة من الحبيب عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، عندما كانوا أفرادًا قلائل يسلمون، يدخلون الإسلام، والرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم يتلقّاهم، ويخدمهم، ويبيّن لهم، يعلّمهم، ويدخل دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه وأرضاه؛ لأجل أنْ يجد مكانًا مهيّأً لبيان ما أوحى الله تبارك اسمه إليه، وما أوحى الله جلّ وعلا لا يزال شيئًا قليلًا بالنسبة لما بقي من القرآن الكريم، وما سيذكر من حديث النبيّ الأمين عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، فنسبته قليلة جدًّا، ولكن هذه النسبة مضغوط فيها المنهج، كما بيّنتُ ووضّحتُ، وأؤكّد لكم دائمًا على هذا.

فدخول السيّدة خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها في الإسلام ما كان فيه مجاهدة من حضرة النبي عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الميامين، مجرّد أنّه قال لها: إنّ جبريل قال لي: كذا، فهي آمنت به أنّه رسول هذه الأمّة؛ كذلك سيّدنا ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه، صحيح أنّ هناك أبحاثًا حول هل هو أسلم أم لا؟ ولا نريد أنْ نخوض في حياة أناس أفضوا إلى ربّهم سبحانه، فهو لا

شكّ كان مؤمنًا، كان موحّدًا لله تعالى من أهل الحنيفية، على ملّة سيّدنا إبراهيم، من بقايا سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والتسليم.

وقد أقسم أنّه إذا الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم أُمِرَ بالرسالة -فهو الآن لا يزال نبيًّا- فإنْ أمِرَ بالرسالة، وبأنْ يبلِّغَ هذه النبوّة إلى الناس:-

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ...} [سورة الحجر: 94]

{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [سورة الشعراء: 214]

بدأت مرحلة الإعلان عن الرسالة، الآن نحن في مرحلة الإعلان عن النبوّة، فهو أقرَّ للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم وقال:-

(هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا) الإمام البخاري رحمه الله جلّ شأنه.

فهذه الكلمات أليس لها وزن عند الله عزّ وجلّ حتى يأتي واحدٌ مسكين؛ ويقول: لا، هذا لا يعدّ مؤمنًا بالرسول عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه العدول! فمَنْ هو المؤمن إذن؟ أو يقول: إنّه ليس صحابيًّا، ولا ينطبق عليه تعريف الصحابيّ! ولا أريد أنْ أخوض في مثل هذه الأبحاث التي لا توصلنا في منهجنا إلى شيء، فنحن نريد معرفة ما هو المطلوب منّا من خلال سيرة الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

إذنْ لاحظوا، إيمان السيّدة خديجة رضي الله تعالى عنها، وإيمان سيّدنا أبي بكر رضي الله سبحانه عنه، فسيّدنا أبو بكر لم يتلكأ أبدًا، بمجرّد أنّ الرسول الأعظم

صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قال: أنا نبيّ هذه الأمة، وأعلنَ أنّه أتاه الخبر بأنّه هو سيّد البشر عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام، بايعه على الفور، وكذلك سيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه، عاش في بيت النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، وحياة سيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه، فيها دلالة واضحة على شهامة النبيّ عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه أجمعين، وكَرَمِ أمّنا خديجة رضي الله تعالى عنها وعنكم، لأنّ النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ذهب وأتى بِسيّدنا عَلِيّ من عند أبيه؛ ليخفّف عن كاهله؛ لأنّه ذو عيال، وعنده أضياف كثر، ويقوم بمهمات كثيرة، فخفف النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم عنه، لماذا؟ لأنّ أغناه الله جلّ وعلا بأمّنا خديجة رضي الله سبحانه عنها، ففطرةً قام بهذا الكرم، بهذه الصورة من صور الكرم؛ وهي أنْ تعتني بأرحامك وأقاربك الذين عندهم فقراء، لأنّهم فقراء --- إلخ ... بأيِّ وسيلة من الوسائل التي يمكن أنْ تخفِّف عنهم؛ فهذا ممكن.

فأنت مثلًا: الله جلّ في علاه تفضّل عليك -وأنا فقط آتي لكم بهذه الأشياء التي تدور في خَلَدي؛ لأنّها تجسّد ثمرات هذه الأسس التي نتحدّث عنها، فهذه الأمثلة التي تدور في خَلَدي- فأنت مثلًا تفضّل الله عزّ شأنه عليك، وعندك ابن يريد الزواج، صار في مرحلة الزواج، وأنتَ تفكّر بجديّة في تزويجه، وهو يريد الزواج أيضًا... إلخ، وعندك ابن عمّ لديه بنت تراها كفؤًا لابنك، عفّة ونظافة وطهارة وثقافة، لكنّه مسكين فقير، فقير الحال، وأنت، الله سبحانه متفضّل عليك، أنت تاجر مثلًا، لا يصح أنْ تقول ما هؤلاء؟ نحن تجّار، نحن رجال أعمال، ونسافر، ونذهب، --- إلخ! لا، الذي يدور في خَلد سعد الله هو أنْ تفكّر

أنْ تستثمر الطاقات، وتزاوج بينها، فالغنيّ يأخذ من الفقير؛ لأجل التخفيف على الفقير؛ لأجل التكاتف مع الفقير، ورفعه درجة على الأقلّ في مسار المال والحاجة؛ لأنّ نبيّك صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم قبل الإعلان عن نبوته قام بهذا الفعل، فذهب وأتى بسيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه عنده وربّاه، وخفّف عن عمّه، وهكذا.

وسيّدنا عليّ رضي الله تعالى عنه آمن بالنبيّ صلوات ربّي وسلامه عليه وآله وصحبه، وربّما عندما كلّمه، قال له: أنا لا أقدر أنْ أعمل شيئًا، دعني أستشير، لكنّه ما تأخر، وهو في سنّ التمييز، ما وصل سنّ التكليف، وتقريبًا معظم الذين آمنوا في هذه الأيّام القلائل آمنوا بسلاسة جدًّا، ما احتاج إيمانهم إلى بحث وتنقيب وتثبّت، --- إلخ.

إذن هذه كلّها بدأت تبرُز معالمها، مثلما أنْت نثرت بذور الحنطة، أو بذور أيِّ نبات من النباتات، وأتيتَ تنظر إليها وإذا بها للتوّ بدأت تشقّ الأرض شقًّا، خرجت للتو، ترى قسمًا منها، وقسمًا لا تراه، فبدأت هذه المرحلة تظهر معالمها، ولكن هنا الظهور كيف؟ الظهور بسلاسة؛ لأنّ هناك فِطَرًا سليمة، هناك بقع تنبت مباشرةً بمجرّد الرّيح كما أنّ الله تعالى أرسل الرياح لواقِحَ، بينما أنت تأتي بالتّبَلْيَة (التبلية: كلمة عراقية وهي أداة للصعود إلى النخيل وتلقيحه)، وتأخذ السكّين وتصعد على النخلة، وتنظفها --- إلخ، انظروا كم هي المجاهدة، والتعب، بينما ربُّ العالمين يسوق الريح، ومباشرة تأخذ اللقاح وتلقّح خمسين نخلة، خمسمئة نخلة برمشة عين، سبحان الله.

فهذه المرحلة هكذا كانت، ببركة نقاء وصفاء الحبيب صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم ببركة نقاء وصفاء حياته الأولية في المرحلة الأولى، ببركة ونقاء الفطرة عند هؤلاء الذين آمنوا بالله تبارك اسمه وبرسوله عليه الصلاة والتسليم وآله وصحبه الميامين، ولكن مع كلّ هذا احتاج الموضوع إلى الاجتماع واللقاء، والاستماع والمشاورة، فصار المجلس في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنه، واسمه عبد مناف -على ما أذكر-

أكثر الذين يكتبون بالسيرة، ويتحدثون عن النظام الإسلامي، والسياسة في الإسلام، يقولون: هذه مرحلة سرية في الدعوة إلى الله جلّ في علاه، لا، لا يوجد مرحلة سرية، عندي لا توجد مرحلة سريّة، فالإسلام معلنٌ عنه، ولكن يوجد ترتيب وتنظيم، فأين يجلس الرسول الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، هل يقعد في الكعبة الشريفة المليئة بالأوثان والأصنام، والصياح، ونساء عاريات يطفن حول البيت، ورجال عراة يطوفون حول البيت! هل يجلس هناك؟! هل يليق؟! وكيف يعلّم؟! هيّا قولوا لي، أنتَ تخيّل نفسك جالسًا تريد أنْ تتعلّم، وأمام نظرك امرأة! فماذا سيحدث؟ أنتَ بشر، مهما كنتَ، لا نريد أنْ نجعل أنفسنا ملائكة!

إذن فهذا من حكمة النبيّ عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الكرام.

بعد ذلك سيشتد الأذى، والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، مع ذلك يتحمّل الأذى، ويذهب ويجلس في البيت، ويصبّر أصحابه، ويأذن لأصحابه بالهجرة، فأين السريّة يا أخي؟!

ويصعد على جبل الصفا، وينادي على بطون قريش بطنًا بطنًا:-

(فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) الإمام البخاري رحمه الباري عزّ وجلّ.

لا أفهم ما هي السـرية؟ نعم هنالك ترتيب، هنالك حكمة، فمثلًا: أنت تخرج من البيت، وهناك أجواء من البرد، ونزول للثلج، فليس من الحكمة أنْ تخرُج بلباس صيْفيّ، فلابُدّ أنْ تتحصّن؛ أو أنّك مثلًا تمشي مسرعًا وتلعب رياضة، أو تلعب أيّ شـيء، ووصـلت إلى مكان فوجدت طوقًا حديديًّا، ارتفاعه 150سـم، وأنت طولك 180سـم، فهناك 30 سـم طول لديك، فهل تمشـي بطولك؟ أم يجب أنْ تخفض رأسك؟ لا، رغمًا عنك لابُدّ أنْ تخفض رأسك، وهذه ليس عيبًا، بل هذه حكمة، لابُدّ أنْ تخفض رأسك.

والشيء بالشيء يُذكر، أعطيكم بعض الصفحات من تاريخ حياتي، عندما قدّمْتُ للأوقاف للتعيين في جامع، فطبيعي يعملون لنا امتحانًا تحريريًّا، وبعد الامتحان هناك مقابلة شـفوية من قبل علماء في بغداد حفظ الله تعالى الباقين ورحم الراحلين إلى ربٍّ كريم، فكان من ضمن اللجنة التي قابلتني: سيّدنا الشيخ عبد الكريم بيارة، وسـيّدنا الشـيخ شـاكر البدري، وأتصـور الشـيخ كمال الطائي، والسيد نجم الدين الواعظ رحمهم الله تعالى جميعًا.

وكان مدير الأوقاف في ذلك الوقت الحاج مؤيد الفياض رحمه الله سـبحانه، فامتحنتُ والحمد لله، وفي الاختبار التحريري كنتُ الأوّل على المجموعة التي معي من الأحبّة، ولكن حدثت مشكلة في النتيجة، فطلبوني، وذهبت، فقالوا: كم حاولنا أنْ ننقص درجتك ولكن ما اسـتطعنا، ولكن هناك سـؤال بسـيط جدًّا لم تُجِبْ عليه، لِمَ لمْ تجب عنه يا بني؟ والمتكلّم هو الشيخ شاكر البدري، فقلت: أنا أجبتُ عن كلّ الأسئلة! قال: نحن إكرامًا لك؛ لأنّ درجاتك كاملة على كلّ سؤال

10/10، ولكن بقي فقط هذا السؤال لم تجب عليه، فأخذتَ عليه صفرًا من عشرة، وهذا جعل درجتك 90%، قلتُ: ما هو السؤال؟ قالوا: في الحديث، قلتُ: قد أجبتُ عليه، كأنّي أرى وأقرأ إجابتي، قالوا: فنحن إكرامًا لك تفضّل اجلس في هذه الغرفة وسنُخرجُ لك دفترك، وسجّل الإجابة ونحن نصلحها، فأدخلوني إلى الغرفة المجاورة، فجلستُ وأخرجتُ القلم، وقد فتحوا الدفتر على صفحة فارغة حتى لا أقلب وأرى الإجابات السابقة، وكتبوا السؤال في هذه الورقة البيضاء من الدفتر، فأخرجت القلم ولكنّه لم يكتب، فخجلت أنْ أقول لهم، فهم علماء كبار، سيّدنا الشيخ عبد الكريم بيارة -رحمة الله تعالى عليه- جالس، فماذا أقول، وأنا في ذلك الوقت كما يقول سيّدي حضرة الشيخ طارق رحمة الله تعالى عليه "إلْحيمي" فاحمرّ وجهي وازْرَقَّ، ولم أعرف ماذا أفعل؛ لأنّ القلم لا يكتب، أكتب به على الورقة، ولكنّه لا يكتب، فانتبه حجّي مؤيّد الفياض رحمه الله عزّ وجلّ، وقال: ما المشكلة يا سعد الله؟ قلتُ: القلم لا يكتب، فقال: تفضّل، هذا قلم، فأعطاني قلم حبر، وأنا كان عندي قلم جاف، فأعطاني قلمه (قلم حبر) وأردتُ أنْ يكتب لكنّه لم يكتب -سبحان الله-، فتجرأتُ قليلًا، وقلتُ لنفسي: أنا أعرف أنّي قد أجبتُ السؤال، فلِمَ لا أقلب الدفتر وأخرج لهم الإجابة، فإلى متى أبقى أسحب أقلامًا؟ فسبحان الله فتحتُ الدفتر وقلبتُ صفحتين فإذا بي أجد الجواب عن الحديث وإذا بي قد أجبته بتمامه وكماله، وأتذكّره إلى الآن كان حديث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم.

(إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ) الإمام ابن ماجه رحمه الله جلّ جلاله.

كيف تشـرح هذا الحديث؟ يطلبون شـرحه بما لا يقل عن خمسـة أسـطر، وقد شرحته، فمددتُ يدي نحو أستاذ مؤيد رحمه الله تعالى قلتُ له: أستاذ العفو، هذا القلم، تفضّـل، أيضًـا لا يكتب! قال: كيف؟ قبل قليل كنتُ أوقّع به، قلتُ: والله لا أعرف، كأنّه قد جف ولا يكتب، وهذا جوابي قد أجبتُ على السـؤال من الأوّل، فلمّا قلتُ ذلك بدأ أحدهم ينظر إلى الآخر، وكان الشـيخ شـاكر البدري رحمة الله تعالى عليه موجودًا، فأراد أنْ يعرف من كان مكلّفًا بتصـحيح أسـئلة الحديث، كيف لم يرَ الإجابة؟ وكيف وضَـعَنَا بهذا الموقف؟ وبعدها الشـيخ عبد الكريم أمسـك يده، وقال: لا بأس، فوضـع لي الدرجة عشـرة من عشـرة، وذهبتُ في أمان الله جلّ في علاه.

نحن كنّا نتكلّم عن حني الرأس، فبعد أنْ تنجح وتُكمل المقابلة الشـفهية، تقرأ القرآن الكريم، وتقف وتؤدي خطبة أمامهم، إلى آخره، آخر شـيء عندما أردت أنْ أستلم الكتاب الذي وقّعت عليه اللجنة بأنّني ناجح، ولكن لابُدّ من توقيع مدير المسـاجد، فقال: تعال إليّ، فذهبتُ إليه للمكتب رحمه الله سـبحانه فقال: إنّ امتحانك لم ينته، لابُدّ أنْ أمتحنك، فقلتُ له: كما تريد يا أسـتاذ، قال: هل تعلم لماذا أريد أنْ أمتحنك، فقلت: لماذا؟ -وفي ذلك الوقت لا يسمح لك بالامتحان إلّا إذا قدّمت على جامع، فتذهب وتبحث في الإعلانات التي كانوا يضـعونها في الأوقاف بأنّ هذا المسـجد فارغ، وهذا الجامع يحتاج إلى إمام، وهذ يحتاج إلى مؤذّن، فأنا لم أجد جامعًا في بغداد، وإنّما وجدتُ جامعًا في الراشـدية، أذكر اسـمه إلى الآن، واسـمه (جامع الحاج عبد الكريم أبو غازي -رحمة الله تعالى عليه- جامع جميل، جيّد، فيه مأذنة على الطَّوْر التركي على نهر دجلة، وكان

جامعًا بديعًا، ولكن والدي رحمة الله تعالى عليه جاء معي في وقتها، ولم يعجبه، فقال: هو مكان ممتاز ولكن يا بني هذا المكان في قرية، وأنتَ لم تتعوّد على أنْ تعيش في القرى، وأهل القرى يصعب التعامل معهم، وأنت ما زلت صغيرًا هذا أولا.

ثانياً: أنت طالب في الكلية في بغداد فكيف تصـــل إليها؟ يوميًّا تذهب وتعود؟ فقلتُ له: سأقدّم عليه، ما أفعل، هذا الذي وجدتُه شاغرًا، فقدّمت عليه.

فالحاج مؤيد كان يسكن في حيّ العدل، وجامع حيّ العدل على وشك أنْ يكمل، والنّاس يأتون إليه دائمًا يوصـــونه أنْ يأتي بشـــخص جيّد، فقال: هل تعلم لماذا أريد أنْ أختبرك؟ قلتُ: لماذا؟ قال: لأنّي أريد أنْ أحضـــرك عندي في بغداد، قلتُ: خيرًا إنْ شـــاء الله، تفضّـــل، فقال: مَنْ هو الإنســـان الذي يجب أنْ تحني رأسـك له ولو كنتَ رئيس الجمهورية؟ وهو هنا يريد أنْ يختبر ذكائي بسـرعة الإجابة والفطنة، حقيقة لم يمرّ عليّ هكذا ســـؤال من قبل، مَنْ هو الذي لابُدّ أنْ تحنِي رأسك له؟ يقول لك: اذهب يمينًا فتذهب، وشمالًا فتذهب، فأجبتُه مباشرةً قلتُ له: إنّه الحلّاق! فهو فقط مَنْ ينحني له رئيس الجمهورية، فوقف رحمه الله تعالى قائمًا، وقال: لا يوجد أحد أهلا لهذا الجامع إلّا أنت.

فقال لي: هذا المسجد في حيّ العدل، هل تعرف الطرق في بغداد؟ فقلتُ: لا والله لا أعرف؟ فتواعدنا وذهبنا.

فحديثنا عن الانحناء، متى يجب عليك أنْ تنحني، فأنت عندما تمشـــي بطولك، وهذه العارضـــة أمامك لابُدّ أنْ تنحني، وهذه من الحكمة، من حكمة الرســـول الأعظم صـــلّى الله تعالى عليه وآله وصـــحبه وسـلّم، وليس فقط للسـرية، ربّما

بعدما انتشر خبر أنّ سيّدنا رسول الله صلّى الله تعالى وسلّم عليه وآله وصحبه ومَنْ والاه، قال: إنّي رسول الله، ربما بدأت جذور المعارضة تظهر شيئًا فشيئًا، لكنّا لا زلنا في بداية المرحلة الثانية، وفي بداية المرحلة الثانية كان دار الأرقم بن أبي الأرقم موجودًا، نتعلّم من هذا، الحكمة في إرساء قواعد المنهج.

أنتم الآن خمسة أو ستة أشخاص من الأفاضل، من العلماء، من الدعاة إلى الله عزّ وجلَّ، أسأل الله سبحانه أنْ يجعلنا جميعًا مخلصين صادقين، أنتم تشكّلون لَبنة لانطلاقة في المجتمع، لانطلاقة في التغيير، لبنة في الالتفات إلى النفس أوّلًا، كلّ واحد منّا، سعد الله يلتفت إلى نفسه، يقيس، يصبح عنده مسبار، كأنّه يدخل في مختبر، يقيس نفسه ما هو في ظلّ هذه المعالم؟ في نور هذه المعالم، في هدايات هذه المعالم، فهذه حكمة، فليس من الممكن الآن أنْ تذهب وتجلس في المقهى، ومعك أربعة أشخاص أو خمسة، وسعد الله يتصل بكم، ويتكلّم معكم هذا الكلام.

إذنْ هذه من حكمة الحبيب صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلّم، ثمّ هو تأسيس للخيرين، تأسيس لمَنْ عنده نعمة، أنّه يرفد الدعوة، ويحتضن رموزها، فهنيئًا له سيّدنا عبد مناف على هذه الدار، الذي إلى الآن يذكر اسمه، والحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وآله وصحبه مشرّف عنده، --- إلخ.

وقد يجد الباحث معالم أخرى، ولكن ما أقصده من حيث التأسيس هو هذا المعنى، الحكمة في التصرّف، وهذا يعطيك عمقًا عميقًا جدًّا، ويعطيك هدايات واضحة جدًّا ومتينة في أنّ التصرّف بالحكمة من البداية يؤدي إلى قوّة البناية.

فمثلًا أنت تريد أنْ تبني بيتًا من ثلاثة أو أربعة طوابق، فإذا أنتَ لم تتصـــرّف بحكمة مع الأرض، وترى ما نوعية هذه الأرض، أهي صـــخرية أم رملية أم ترابية؟ ماذا تحتاج، وكم تحتاج أنْ تحفر للأســـس عمقًا، وكم وزن كلّ طابق، إلى آخره ممّا هو عمل المهندسين، وأهل الخبرة، فلن يكون بناؤك رصينًا.

إذن: المرحلة الثانية يا أحبابي فيها تركيز على المجاهدة، وهذه ستتبين لك أكثر في بداية سورة المزمّل، البناء الذاتي في حسن الصلة بالله جلّ في علاه، بمعنى أنّ:-

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [سورة العلق: 1]

مجمل في تحسين الصلة بالله تعالى، لكي تنطلق أنتَ على هدايات (بسم الله)، ولكن هل هذا الاعتقاد فقط يكفي، أم لابُدّ من حركة تعبّدية تُعمِّق وتدقِّق وتُؤلِّق وترقّي هذه الصلة بالله تعالى؟

الجواب: نعم لابُدّ من حركة تعبّدية، وهذه جاءت من أشـــدّ العبادات على النفس البشرية وهي قوله عزّ من قائل:-

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِصْـــفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمّل: 1 - 5]

هذه هي العلّة، أنّه يوجد في المستقبل قول ثقيل، عمل شاقّ، وثقل لابُدَّ أنْ يقوم على أساس متين، والأساس المتين لا يكون إلّا في شخص الداعي، في شخص الإمام، في شخص الخطيب، وهنا نستطيع أنْ نأخذ مثالًا عصريًّا لواقع سعد الله، انظروا: سيّدنا الشيخ أستاذ الجيل قدّس الله تعالى سرّه العزيز، ورضي عنه

وعنكم، وطيّب روحه وذكره وثراه، لمّا رأى منّي خللًا وغفلة على المنبر، فكيف أكون داعيًا إلى الله سبحانه؟ فأمدّه بما مكّنه الله تبارك اسمه منه بتلك الشحنة الروحانية الإيمانية المباركة، فأيقظت قلبه، والحمد لله ربّ العالمين، وانظروا عندما أيقظت قلبه أين كان سعد الله قبل هذه الشحنة، وأين سعد الله بعد هذه الشحنة!

{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} [سورة القيامة: 14].

لو أتكلّم لكم مَنْ أنا قبل الشحنة ربّما سلام لا تسلّمون عليّ، وهذه حقيقة، كنت شابًّا مسكينًا، لم يوجّه، ليس لديه مربٍّ، يعجبه صوته وأدائه، تعجبه خطبته، وهذا العُجب ما يفعل؟ تذكرون مثال الحيّة والسلّم؟ فهذا العُجب حيّة، نسأل الله تعالى العافية، ونسأله أنْ يجعلنا متواضعين، ونسأله أنْ يجعلنا ترابيين، بل ندفن أنفسنا في التراب، لعلّها تنبت، لعلها تتشرّف.

وأهل الذوق يقولون: جعل الله تبارك تعالى الماء طهورًا في ذاته؛ لأنّ الله عزّ وجلّ نزّله طاهرًا مطهرًا:-

{... وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ...} [سورة ق: 9].

وفي آية أخرى:

{... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ...} [سورة الفرقان: 48].

إذن ماء السماء طاهر مطهّر، ولكن تراب الأرض كيف صار مطهِّرًا؟ قالوا:- لأنّه (تراب الأرض) رضي بأنْ يداس بالأقدام، فأعلى الله جلّ وعلا له المقام، فجعله مسجدًا وطهورًا.

جعل تراب الأرض مسجدًا وطهورًا! لماذا؟ للتواضع.

فسعد الله عندما يذكر قصّة الشحنة الروحية، لا يذكرها لكم فقط، بل أذكرها لكلّ طلبة العلم الذين ألقاهم، وأقول لهم أنا صـاحب القصّـة، حتّى ينتبهوا؛ لأنّ للعلم طغيانًا، لا يقلّ عن طغيان المال، نعوذ بالله تبارك وتعالى.

ونختم تبرّكنا بالمرحلة الثانية، وهذا يكفينا إنْ شـاء الله تعالى في التأسـيس، في الالتفات إلى نفوسنا وأحوالنا مع الله عزّ شأنه

وصلّى الله تعالى وسلّم وبارك على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.